من دار الى دار

للدكتور طه حسين

قال استاذ البيان لتلميذه: زعموا ان البيان يعين صاحبه على ان يؤدى المعنى الواحد بعبارات مختلفة فيها الحقيقة والمجاز، وفيها التشبيه والاستعارة، وفيها الكناية والتمثيل. وفيها ما نعلم وما لا نعلم من الوان الجمال اللفظى، هذه التى تأتى عن قصد، وتأتى على غير عمد، كأنما يوحى بها الى الكاتب المبين. ولكنك تعلم انا لا نذهب فى فهم البيان هذا المذهب، ولا نقصد به الى هذا النحو، وانما نذهب به مذهبا اعم من هذا واشمل، كان يذهب اليه القدماء حين كانوا يتخذون البيان وسيلة الى أداء ما يعرض للكاتب من الاغراض والمعانى فى أشد الالفاظ ملاءمة لاغراضه ومعانيه: ولعلك تذكر انهم كانوا يذهبون فى تعليم الطلاب فن البيان مذهبا طريفا كثيرا ما كان يضيق به المتكلفون من أصحاب الاخلاق، والذين لا يعلمون الا ظاهرا من الفلسفة. قال التلميذ: نعم هو هذا المذهب الذى كان يحمل الاستاذ على أن يطرق امام تلاميذه ويحمل تلاميذه على أن يطرقوا أشد الموضوعات تناقضا واعظمها اختلافا فيؤدرها كأنهم يؤمنون بها أقوى الايمان، ويقتنعون بها أشد الاقتناع. وكانت هذه بدعة استحدثها السوفسطائية ثم ورثها عنهم أصحاب البيان فلم يغيروها، وانما أمعنوا فيها امعانا. وكتاب ارسطاطاليس فى الخطابة حافل بذلك. وقد أبلى الجاحظ فى هذا النحو من تعليم البيان بلاء حسنا، وقد الف اساتذة اللغة والبيان فى هذا النحو من الادب كتبا لا تخلو من لذة ومتاع، فيها مدح الشىء الواحد وذمه، وفيها مدح النقيضين وذم النقيضين، وفيها . . . . قال الاستاذ حسبك، فقد أرى أن أشهر الصيف وما كان فيها من ارتحال وتطواف، ومن اختلاف البيئات عليك وترامى اطراف الارض بك لم تنسك ما أفدت فيه أشهر الربيع من الدرس والبحث، فانا نريد الآن أن نبتدىء من حيث انتهينا، ونمضى من حيث وقفنا، ونعود الى ما كنا فيه من التمرين. فاختر لنا موضوعا واحدا يثير الضحك ويثير الرثاء. يثير الشماتة ويثير الرحمة. يبعث فى النفوس مرحا وابتهاجا ويملأ القلوب كآبة وحزنا، وهو على ذلك كله واحد لا يتغير، وانما يتغير وجه النظر اليه ونحو التفكير فيه. فانت تعلم أن الاشياء مهما تتحد فهى متباينة، ومهما تأتلف فهى مختلفة، وأن الشىء الواحد قد يخالف نفسه ويباينها باختلاف الجهات التى تنظر اليه منها والطرق التى تسلكها الى فهمه والوصول اليه. قال التلميذ

فانى لست فى حاجة الى أن أجد وأكد، أو ألتمس واختار، لان الموضوع ماثل امامى شهدته أمس فأثار فى نفسى هذه العواطف المختلفة، وبعث فى قلبى هذه الألوان المتباينة من الشعور، وكان المتعمقون فى البيان يسرفون على انفسهم وعلى تلاميذهم وعلى الفن حين كانوا يختارون ما يحدث بين ايديهم من الحوادث، ويختلف عليهم وعلى امثالهم من الخطوب، ويلتمسون الموضوعات من عند أنفسهم يخلقونها خلقاً، فيصيبون حيناً ويخطئون أحيانا، ويعيشون فى عالم الخيال على كل حال، مع أنهم لو نظروا فيما حولهم من الاحياء والأشياء لما احتاجوا الى هذا الكد والجد، ولما بعدوا بانفسهم وتلاميذهم عن مواضع الحق والصدق والصواب، ولما نقلوا الأدب من هـذا العالم المعروف الذى يضطرب فيه الناس الى عالم آخر لا يضطرب فيه الا الوهم، ولما قطعوا الصلة بين الأدب الذى يجب أن يكون صورة الحياة وبين الناس الذين يجب أن يخلدوه مرآة يرون فيها أنفسهم وحياتهم كما هى أو كما يحبون أن تكون، أو كما يكرهون أن تكون قال الأستاذ: هات موضوعك ولا تمعن فى الاستطراد، فقد علمت وقد أنبأتك بأنى علمت أن أشهر الصيف لم تنسك دروس الربيع. قال التلميذ: فان الموضوع الذى شهدته أمس موضوع خصب يثير ما شئت من المعانى، ويلهم ما أحببت من الخواطر ويثير من المعانى ما لم تشأ، ويلهم من الخواطر ما لا تحب، يبعث الابتسام إن شئت أن تبتسم، ويبعث العبوس إن أحببت أن تعبس، وقد يكرهك على الابتسام وأنت عابس، وقد يكرهك على العبوس وأنت مبتسم، وقد لا يقف بك عند الابتسام، بل يغرقك فى الضحك اغراقا، وقد لا يقف بك عند العبوس بل يدفعك الى البكاء دفعاً، وقد يقنك من الابتسام والعبوس ومن الضحك والبكاء موقفا بين ذلك، فيه هدوء وعجب، وفيه رضى وسخط يضطربان فى النفس ولا تظهر آثارهما على الوجه. قال الأستاذ كفكف من هذا السيل اللفظى المتدفق، واقصد بنا الى ما نريد، فقد علمت أن أشهر الصيف لم تنسك دروس الربيع فى المعانى، وقد علمت أيضاً انها لم تنسك دروس الربيع فى الالفاظ، وقد علمت أنك ما زلت قادراً على أن تجيد هذا الفن الذى يمكن الكاتب أو المتكلم من أن يقول فيطيل دون أن يؤدى معنى أو يدل على شىء. قال التلميذ: وكأنك تنكر هذا الفن أو تسخر منه أو تزعم أن جمال الكلام لا يأتى من الكلام نفسه، وأن الالفاظ ليست على حظ من الجمال الذاتى الذى يأتى من اتساقها والتآمها وانسجامها. قال الأستاذ دعنا من كل هذا العبث واقصد بنا الى ما نريد فقد نعود فى يوم

آخر إلى حديث الالفاظ والمعانى وما يجب أن يكون بينهما من صلة ،وما يجب أن يقسم بينهما من الجمال .

ولكن اذكر إن كنت نسيت أنك شهدت أمس موضوعا واحداً يثير الضحك ويثير الرثاء.حدثنى عن هذا الموضوع ، كيف أثار الضحك ؟ وكيف أثار الرثاء ؟ قال التلميذ : وكيف أنسى موضوعاً لا يمكن أن يعدو عليه النسيان ؟ وما رأيك فى أديب خلق ليكتب ، ويقول فيقضى عليه فجأة ألا يكتب ولا يقول ؟ خلق ليفكر ويرقى بتفكيره الى السماء فيجذب الى الأرض جذباً ، ويكره على البقاء فيها إكراها ، ويؤخذ بالحياة مع أهلها أخذاً ، خلق ليقرأ فيقضى عليه فجأة ألا يقرأ ، خلق أطول الناس بالكلام لساناً ، وأحرأهم بالقلم يداً ، وأسرعهم الى المعانى نفساً ، وأخصبهم بالخواطر ذهناً ؛ فيعقد لسانه وتغل يده وتقيد نفسه ويجدب ذهنه . خلق واضح الجبين باسم الثغر مبسوط الأسارير ، تضطرب فى نفسه الغنية معان غزيرة فيظهر اضطراب هذه المعانى على وجهه ، فاذا هو متحرك الهيئة دائماً لا تكاد تظر الى محياه حتى ترى له شكلا جديداً يصور معنى جديداً ، يضطرب فى تلك النفس التى لا تهدأ ولا تستقر فيقضى على هيئته أن تسكن ،وعلى وجهه أن يتخذ صورة بعينها جامدة مستقرة لازمة لا تتحرك ولا تنتقل ولا تزول .

قال الأستاذ وماذا تنكر من أمر هذا الاديب؟ انما هو صورة من صور برومثيوس الذى كان حركة متصلة منتجة خصبة ،سريعة لبقة ، تعلم الناس فى غير انقطاع . وتسلك الى تعليمهم كل سبيل ، وتبتغى اليه كل وسيلة ، حتى لم تتحرج من أن تختلس نار الآلهة اختلاساً فتهديها الى الناس وتمنحهم بذلك الحضارة والعلم والفن وتغنيهم أو تكاد تغنيهم عن (زوس) وأصحابه من سكان الأولمب ، فغضب عليه زوس وضاق به وأزمع أن يعاقبه على ما جنى ، فشده الى صخرته تلك فى القوقاز وقضى عليه أن يظل طوال الدهر مغلولا . وقد كانت الحركة جوهره عاجزاً . وقد كانت القدرة حقيقته لا يملك لنفسه ولا للناس شيئاً ، لا يدفع عن نفسه ولا عن الناس شيئاً ، يزوره النسر الذى وكل به من حين الى حين ، فينهش كبده نهشا ، وهو يرى ذلك ويألم له أشد الألم ولا يستطيع له دفعاً ،يدعو الحرية فلا تستجيب له ، لأن زوس قد كفها عنه ،يدعو الموت فلا يستجيب له ، لان الاقدار قد كتبت له الخلود . وقد صور ايسكولوس حال برمثيوس هذا تصويراً بديعاً ألم من جاء بعده من الكتاب والشعراء والممثلين المصورين والموسيقيين .

وقد أثار ايسكولوس فى تصويره ضحك الذين قست قلوبهم ، ورثاء الذين رقت نفوسهم كما أثار معانى أخرى أقوم وأخصب وأبقى من الضحك والرثاء . قال التلميذ : لم أقصد الى برومثيوس ولم أفكر فيه ، وهل تظن أنى رأيته أمس ولم أذهب الى القوقاز وانما انا معك فى القاهرة ، ولعلى ان ذهبت الى القوقاز فلا أرى الصخرة ولا قرينها فلم يحدثنا عنهما احد من الذين زاروا تلك البلاد بعد ايسكولوس . قال الاستاذ فهى صورة من صور برومثيوس قصدت اليها واتخذتها نموذجا لهذا النحو من البيان كما كان يفعل القدماء . قال التلميذ لم افكر فى برومثيوس ولم اقصد الى تقليد ايسكولوس ،وانما هو شىء شهدته امس .قال الاستاذ وماذا شهدت ؟ قال التلميذ شهدت صديقنا فلانا وقد ارادت له ظروف الحياة ان ينتقل من دار الى دار .قال الاستاذ وقد اغرق فى الضحك ما أبعد هذه الصورة التى تحدثنى عنها من تلك الصورة التى كنت اذكرك بها او اين يكون صديقنا فلان حين تنقله الظروف من دار الى دار ،من برومثيوس حين يشده كبير الآلهة الى صخرة القوقاز؛ قال التلميذ فقد اثار صديقنا فلان فى نفسك الضحك لأن صورته ذكرتك بتلك الصورة الضخمة العظيمة التى نصبها ابو التراجيديا للناس فلما انحدرت منها الى هذا الشخص الضئيل النحيل الذى كان يقيم فى طرف من اطراف القاهرة فانتقل الى طرف آخر لم تملك نفسك ان أغرقت فى الضحك اغراقا . ومع ذلك فلو قد رأيته امس كاسف البال كئيب الوجه محزون القلب معقود اللسان مقيد الرجل مغلول اليد ،محصورا بين طائفة من الأثاث وادوات البيت ،مختلفة اشد الاختلاف ، متباينة اشد التباين ،فيها الكبير والصغير ،فيها الانيق والدميم ، قد جمعت حوله تجميعا ، وكدست حوله تكديسا ، وقد وضع هو بينها وضعا على كرسى او شىء يشبه الكرسى ، وقيل له اقم لا ترم حتى يأذن الله أو يأذن العمال لك بالانتقال ،وهو مقيم لا يستطيع ان يقول شيئا ،ولا ينبغى ان يقول شيئا، لأنه لا يفهم عما حوله شيئا، يريد أن يخلو الى نفسه ويعيش مع خواطره ، فاذا الاسباب قد قطعت بينه وبين نفسه ،واذا الحواجز قد أقيمت بينه وبين خواطره ، واذا هو مصروف عن ضميره صرفا بهذه الاصوات العنيفة المختلفة التى تأخذه من كل مكان، والتى تؤلف من حوله نوعا فظيعا غليظا من الموسيقى ،فيه أصوات العمال على اختلافها ،واصطدام الاثاث ، ووقعه على الارض ، وهذا الصوت الذى يغيظ ويهيج الاعصاب ويأتى من جر الاشياء على الخشب حينا وعلى الحجر حينا آخر ،وخفق الاقدام وتداعى الخدم ،وتناهى الحمالين وما شئت مما يحضر وما لا